خير الهدي هدي المصطفى ﷺ

٥

و لا تقبضن الأمانة

الدكتور
محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى
2006 - 1426

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ - هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ - فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

في مُسندِ الإمامِ أَحْمد: عَنْ أبي ذَرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ:

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «سِتَّةُ أيَّامٍ اعقلْ يَا أبَا ذَر! ما أقولُ لكَ بعد» فلمَّا كانَ اليومُ السَّابعُ ، قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ:

«أُوصيْكَ بِتقْوى اللهِ في سرِّ أَمرِكَ وعَلانِيتهِ ، وإذَا أسأْتَ فأَحْسِنْ ، ولا تَسألنَّ أحَداً شَيئاً وإن سقَطَ سَوطُك ، ولا تَقْبِضْ أمانَةً ، ولا تقْضِ بينَ اثْنيْنِ».

اتَّفقَ أفرادُ العائِلةِ عَلَى الخُروجِ مساءَ غَدٍ إلى بُستانِ الخَالِ (أبي معروف).. وبالفِعْلِ

أَعدَّتِ الوالدةُ (أم الخير) مَا تَتَطلَّبُه مَسائلُ الطَّبخِ..

ولمَّا اقْتربَ موعدُ أذانِ المغربِ رَكِبَ أفرادُ العائلةِ في السَّيارةِ، ووَضعُوا الأغْراضَ في الأمْكِنةِ المُجهَّزةِ لذلك، وانْطلَقُوا...

وبعدَ ساعةٍ مِنَ الزَّمنِ وَصلُوا إلى مِنطقةٍ قريبةٍ من نبعِ المِياهِ.. حيثُ تكثُرُ الأشجارُ وتَنْتَشِرُ رائحةُ الأزهَارِ.. وتُسمَعُ أصواتُ الطُّيورِ، ويشعُرُ المرءُ أنَّهُ يعيشُ في عالمٍ آخر!!

فهُناكَ يبتعدُ الإنسانُ عنْ ضَوضَاءِ المَدينةِ وصَخَبِها، ويبتعدُ عنْ مشاكِلِ البيئةِ والتَّلَوُّثِ، ليتَنفَّسَ بِكُلِّ عُمقٍ!!

فقالتْ (دانية): أجَلْ لَقدْ وَصلْنا.. فهذَا هُو

بُستانُ خَالي.. ولكنْ لا يُوجدُ فيهِ أضواءٌ والبابُ مغلقٌ ، فكيفَ الدُّخولُ يا صُهيبُ؟

فأجابَها (صهيب): وهلْ مِنَ المعقولِ أنْ نأتي إلى هنا ولا نَحسبُ للأمرِ حِسابَه؟!

فقالتْ (روضة): لقدْ أتيتُ بِالمفاتيحِ.. وانتهتِ المُشكلةُ يا عَزيزي.

وراحتِ الوالدةُ (أم الخير) معَ البناتِ يُهيِّئْنَ الطَّعامَ.

بينَما انْطلقَ الشَّبابُ معَ أبيهم للتَّجوُّلِ في البُستَانِ ، وَمشاهدَةِ الأشجَارِ والأوْرَاقِ والثِّمارِ.. ومتابعةِ ما حَدَثَ من تطوُّراتٍ في البُستانِ.

ثمَّ عَادُوا إلى مَكانِ التَّجمُّعِ.. وأدَّوا صَلاةَ

المَغْربِ والعِشاءِ جمعَ تَأخيرٍ.. وجَلسُوا لتناولِ العَشاءِ.

وعِندَما راحتْ (روضة) تُعِدُّ شَرابَ الشَّاي بالقِرفَةِ ، قَال (جميْل): ومَاذا عن المَوعدِ الَّذي نستمعُ فيهِ إلى موعظةٍ أو مسألةٍ مَا؟!

وتبسَّمَ (صهيب) وأخْرَجَ من جيبِهِ ورَقةً.. وقرأَ عليهم حديثَ رسولِ اللهِ ﷺ ، وهُو يُوصِي الصَّحابيَّ أبا ذَرٍّ رضِيَ اللهُ عنهُ.

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾

فقالَ الوالدُ (أبو الخير):

فالرَّسولُ ﷺ بَدَأ هَذَا الهَدْيَ بِالحديثِ عن التَّمسُّكِ بالتَّقوى.

وذَلكَ لأنَّ التَّقوى هِي طريقُ كُلِّ سَعادَةٍ ،

وجِماعُ كُلِّ فَضيلةٍ ، قالَ اللهُ تَعالى:

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴾ [الطلاق: ٤].

والتَّقوى تَقِي صَاحِبَها منْ كُلِّ سُوءٍ ، وتُكفِّرُ عنهُ ذنُوبَهُ وخَطَايَاهُ ، قالَ اللهُ تَعالى:

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴾

[الطلاق: ٥].

والتَّقوى هِي أفضلُ زَادٍ يحملُهُ المرءُ منْ دُنياهُ إلى آخِرتِهِ ، حيثُ يبقَى في الدُّنيا كُلُّ ما فِي الدُّنْيا ، يَبْقَى المَالُ لِلورثَةِ ، وتَبْقَى الزَّوجَةُ والأولادُ ، ويَبْقَى كُلُّ شيءٍ ليَنْتَقِلَ الإنسانُ ومَعهُ عَمَلُه فقطْ ، قالَ اللهُ تعَالَى:

﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ ﴾ [البقرة: ١٩٧].

لذلكَ جاءتِ الوَصَايَا للنَّاسِ بأنْ يَسيرُوا على دَربِ التَّقوى ، لِينَالوا السَّعادَةَ في الدُّنيا ،

ورِضَا اللهِ ونعيمَهُ في الآخِرةِ ، قالَ الشَّاعرُ:

ولستُ أرى السَّعادةَ جمعَ مالٍ
ولكنَّ التَّقيَّ هوَ السَّعيدُ
وتَقْوى اللهِ خيرُ الزَّادِ ذُخْراً
وعِنْدَ اللهِ للأَتْقَى مَزِيْدُ

ولا تَكُونُ التَّقْوى أَمامَ النَّاسِ فَقَطْ ، بَلْ تَكونُ في السِّرِّ والعَلَنِ ، مِصداقُ ذِلكَ قولُ اللهِ تَعالى:

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق: ٣١ ـ ٣٥].

وإذَا أصبحتْ صفةُ التَّقوَى مَلازِمةً للإنسانِ ، أصبحَ إنساناً ربَّانياً يُضاهِي ملائكةَ اللهِ تَعالى.

كَيْفَ لاَ؟

وهُو يُراقِبُ اللهَ في سِرِّهِ وعَلَنِهِ.

لِذلكَ سيَنالُ المَرْتَبَةَ الرَّفيعةَ والمَقامَ المَحمودَ يومَ القِيامَةِ ، مِصداقُ ذلكَ مَا جاءَ في حَديثِ السَّبعةِ الَّذينَ يُظِلُّهم اللهُ في ظِلِّهِ يومَ لاَ ظِلَّ إلاَّ ظِلُّهُ ، قالَ: وفِيهم:

«رَجُلٌ ذكَرَ اللهَ خَالِياً ففَاضَتْ عَيْنَاهُ».

نسألُ اللهَ أنْ يجعَلَنا منَ المُتَّقينَ ، لنكونَ مِنَ الفَائزينَ أجْمعيْن..

وخيرُ الخَطَّائينَ التَّوَّابُونَ

وقالتْ (روضة):

ومِنْ بَديعِ صُنْعِ اللهِ ، أنَّهُ خلقَ الإنسانَ ورَكَّبَهُ عَلى الخَطأِ والنِّسيانِ ، لكنْ دلَّهُ عَلى

الطَّريقِ الَّذي يُخلِّصُه من ذلكَ ، وهُوَ: «إذا أسأْتَ فَأحْسِنْ».

أي: إذَا وَقَعَتْ منكَ هفوةٌ ، وأخطأْتَ في جنْبِ اللهِ تَعالى ، فمَا عليكَ إلاَّ أنْ تُسرِعْ لِتَتوبَ إلى اللهِ وتستغفرَهُ مِمَّا حَدَثَ ، ثُمَّ تبادِرَ إلى تصحيحِ ذلكَ الخطأ فتنهضَ وتشمِّرَ لِتعملَ عَملاً حَسَناً تمحُو بِهِ العملَ السَّيِّىءَ.

وكَمَا نعلمُ فَاللهُ يَتقبَّلُ التَّوبَةَ مِنْ عِبادِهِ عن سيئاتهم ، ويَستبدِلُ ذلكَ بالحسناتِ ، مِصداقُ ذلكَ قولُ رسولِ الله ﷺ: «وأتْبِعِ السَّيئةَ الحَسَنةُ تَمحُها».

كذلِكَ معَ النَّاسِ!

فإنْ أسأتَ إليهم فأحْسِنْ ، سواءً كَانَ ذلكَ نتيجةَ خطأٍ ما ، أو نَتيجةَ نِسيانٍ مَا ، ومَا عليكَ

إلاَّ الإسراعَ إلى الاعتذارِ منهُم أَوَّلاً ، ثُمَّ إلى إصلاحِ ذلكَ الأمر ثَانياً ، ويكونُ ذلكَ عنْ طريقِ تقديمِ الصَّالحِ بَدَلاً منَ الفَاسِدِ ، أو تقديمِ ما هُو نافعٌ ينفعُ بَدَلاً عن كُلِّ ما يضُرُّهُ.

وبِذلكَ تُحلُّ جميعُ المشاكِلِ ، وإلاَّ إذا أَهمَلَ الإنسانُ ما وقَعَ فيهِ ، ودَارَ الزَّمنُ دَورتَهُ ، يُصبِحُ ذَلكَ شَيئاً عَظِيماً ، ولا يستطيعُ حَلَّ ذَلك إلاَّ مَنْ لَهُ باعٌ طويلٌ في حَركَةِ الإصلاحِ!!

وصدَقَ الرَّسولُ ﷺ: «إذَا أسأْتَ فأَحْسِنْ».

«ومنْ يسْتغْنِ يُغْنِهِ اللهُ»

وقالَ (صهيب):

ثُمَّ يُرَكِّزُ رسولُ الله ﷺ عَلَى مسألةٍ مهمَّةٍ ، وهِي الَّتِي تتعلَّقُ بكثيرٍ من أمورِ الإنسانِ ، أَلا

وهِي مسألةُ الاسْتِغناءِ عن النَّاسِ!

والهَدفُ من ذلكَ كُلِّهِ أنْ يعيشَ المرءُ الحياةَ عيشةً كريمةً ، لا مِنَّةَ لأحدٍ عَليهِ.

وبالتَّالِي أنْ يكونَ الافتِقارُ في كُلِّ الأحوالِ للهِ وَحدهُ سبحانَهُ وتَعالى ، وَرَحِمَ اللهُ القائلَ: اسْتغنِ عَمَّنْ شئتَ تكُنْ أميرَهُ ، واحتجْ لِمن شِئتَ تَكُن أسِيْرَهُ.

ومَدَارُ الأمرِ في ذلكَ عَلَى أن يعيشَ الإنسانُ متعفِّفاً لا يذلُّ نَفْسَهُ لأحدٍ منَ البَشَرِ ، ولا يُهينُ نفسَهُ ، ولا يَبيعُ كَرامَتَهُ ودِيْنَهُ مِنْ أجْلِ دُرَيْهِمَاتٍ!!

كَمَا جاءَ حَديثُ الشَّابِّ القَويِّ: «لأنْ يأخُذَ أحدُكُم حَبلَهُ وفَأسَهُ فَيذْهبَ فيحتطِبَ فيبيعَ

فيستغني؛ خيرٌ منْ أن يَسألَ النَّاسَ أَعْطَوه أو مَنعُوهُ، ومنْ يتعفَّفْ يُعِفَّهُ اللهُ، ومنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ الله، وما أُعطِيَ أحَدٌ عطاءً هُو أوسعُ وأجزَلُ مِنَ الصَّبرِ».

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾

وقالتِ الوَالدةُ (أم الخير):

ولِثقَلِ الأمانَةِ وعَظيمِ خَطرِها، وجَلالةِ قَدرِها، فقَدْ رفضَ حَمْلَها السمواتُ والأرضُ، وحَمَلَها الإنسانُ المسكينُ!

والمقصودُ بالأمانةِ هُنا: هي جميعُ التكاليفِ الشَّرعيةِ من الالتزامِ بالأوامِرِ واجتنَابِ النَّواهِي، سواءً كانَ ذلكَ مادِّياً أو غيرَ مَادِّيٍّ.

ولذلكَ أشفقَ رسولُ الله ﷺ عَلَى أبي ذَرٍّ من

تحمُّلِ مسؤولياتِ الأماناتِ ، فأوصاهُ بعدمِ قبْضِها: «يا أبَا ذَرٍّ! إنَّكَ ضعيفٌ وإنَّها أمانةٌ ، وإنَّها يومَ القيامةِ خِزْيٌ وندامةٌ ، إلاَّ منْ أخذَها بحَقِّها الَّذِي عَلَيه».

وقالَ عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: «القتلُ في سبيلِ اللهِ يُكفِّرُ الذنوبَ كُلَّها إلا الأمَانَةَ».

وقالَ أيضاً: «آيةُ المنافِقِ ثلاثٌ: إذَا حدَّثَ كذَبَ ، وإذا وَعَدَ أخْلَفَ ، وإذَا أُؤْتُمِنَ خَانَ».

وقالَ أيْضَاً: «أدِّ الأمانةَ إلى مَنْ ائتَمَنَكَ ولا تخُنْ من خَانَكَ».

«عدْلُ ساعةٍ خيرٌ من عِبادةِ ستِّينَ سَنَة»

وختَمَ (أبو الخير) الحديثَ بالقولِ:

وفي نهايةِ هذَا الهَدْيِ النَّبويِّ الرَّائعِ ، يأتي التَّحذيرُ بعدمِ تولِّي أُمورِ القضاءِ: «ولا تَقْضِيَنَّ بينَ اثنينِ».

وذلكَ لأنَّ أيَّ اختلالٍ في مسألةِ الأحكامِ بينَ النَّاسِ ، يؤدِّي إلى الظُّلمِ والابتعادِ عنِ العَدلِ ، وعِندئذٍ ينطبقُ عليهِ قولُ رسولِ الله ﷺ:

«القُضاةُ ثلاثةٌ: قَاضٍ في الجَنَّةِ ، وقَاضيانِ في النَّارِ ، قاضٍ عَرفَ الحَقَّ وبِهِ حَكَمَ فَهُوَ في الجنَّةِ ، وقاضٍ عَرفَ الحَقَّ ولَمْ يَحكُمْ بهِ ، وقاضٍ حَكَمَ بغيرِ عِلمٍ فَهُما في النَّارِ».

ولذلكَ أشفقَ الرَّسولُ ﷺ عَلى أبي ذرٍّ ، فَحذَّرَه منْ أن يتَولَّى مسؤولياتِ الحُكمِ والقَضاءِ: «ومَنْ وليَ القضاءَ فقدْ ذُبِح بغيرِ سِكِّينٍ».

وهَكذَا انْتهى الحديثُ عِنْدَ هَذَا الهدي النَّبويِّ... لِيقُومَ أفرادُ العائلةِ بالتَّجهيزِ للعودَةِ إلى البيتِ.. بعد انقضاءِ ساعاتٍ جميلةٍ.. وفي جَوٍّ جَمِيلٍ..

والحمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ